كتاب
تاريخ بيروت
لمحمّد بن صالح
(تابع لما سبق)

ذكر بعض حوادث جرت بعد فتوح بيروت الثالث الى ايّام المؤلّف

قال النويري : في العشر الآخر من شعبان سنة ثمان وتسعين وستماية (١٢٩٩ م) وصل الى بيروت مراكب كثيرة وبُطَس (١ للفرنج فيها جماعة كثيرة من المقاتلين ويقال انّ عددهم كان يبلغ ثلاثين بُطسة في كل بُطسة منها نحو سبعمائة مُقاتل وقصدوا ان يطلعوا من مراكبهم الى البرّ ويشنّوا الغارة على بلاد الساحل . فلمّا قربوا من البرّ ارسل الله عليهم ريحًا شديدة ففرقت بعض هذه السفن وتكسّر بعضها ورجع من سلم منهم على أسوإ حال وكفى الله المسلمين شرّهم . ثم قال النويري : وحُكي عن رئيس بيروت انّهُ قال : والله لي خمسون سنة ألازم هذا البحر فما رأيت مثل هذه الريح التي جرت على هذه المراكب وليست هي من الرياح المعروفة عندنا

وممّا نقلناهُ عن النويريّ والصّلاح الكُتبي في فتوح كسروان ما رويا من جملة حوادث سنة خمس وسبعمائة (١٣٠٥م) وذكرا توجّه العساكر الشاميّة الى جبال كسروان وإبادة اهلها وتهديدها وهي النوبة الثانية في ايّام السلطان الملك الناصر محمّد بن المنصور (٢ قتالا : كان اهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدّت شوكتهم وتطاولوا الى أذى العسكر عند انهزامهِ من التر في سنة تسع وتسعين وستمائة (١٣٠٠ م) واغضى السلطان عنهم وتمادى في عتاهم فزاد طغيانهم واظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجبالهم المنيعة ووثقوا بجموعهم الكثيرة وعلّلوا النفوس بانّهُ لا يمكن الوصول اليهم

في ذي الحجّة سنة اربع وسبعمائة (١٣٠٤م) جهّز (٣) جمالُ الدين آقُش

---

١) البُطسة جمعها البُطَس كلمة اعجميّة يُراد بها المركب الكبير للتجارة او الحرب

٢) هو الملك الناصر محمّد بن قلاوون من المماليك الترك البحريّة تولّى السلطنة على مصر والبلاد الشاميّة من سنة ٦٩٣ الى ٧٤١ (١٢٩٤—١٣٤٠)

الاقرم نائبُ الشام (١ زينَ الدين عدنان (٢ . ثمّ توجّه بعدهُ تقيّ الدين (٣ وقراقوش (٤ وتحدّثا معهم في الرجوع الى الطاعة فأبوا. فامر عند ذلك بتجريد العساكر اليهم من كل جهة ومن كل مملكة من ممالك الشام. وتوجّه آقش الاقرم من دمشق بسائر الجيوش في يوم الاثنين الثاني من محرّم سنة خمس وسبعمائة (١٣٠٥م) وجمع جمعاً كثيرًا من الرجّالة نحو خمسين الفًا وتوجّهوا الى جبال الكسروانيين والجرديين. وتوجّه سيف الدين أسندمر نائب طرابلس (٥ وشمس الدين سُنقرُ جاه المنصوري نائب صفد (٦ . وطلع أسندمر المذكور من جهة طرابلس وكان قد نُسب الى مُباطنتهم. فجرّد العزم واراد ان يفعل في هذا الامر ما ينفي عنهُ هذه التهمة اللاحقة به. فطلع الى جبل كسروان من اصعب مسالكه واحتمت على اهله العساكر واحتوت على جبالهم ووطئت ارضاً لم يكن سكانها يظنون انّ احداً يطأها. وقُطعت كُردهم وأُخربت بيوتهم وقُتل منهم خلقٌ كثير وتفرّقوا في البلاد (٧ . واستخدم أسندمر جماعةً منهم في طرابلس بجامكيّة (٨ وجازاهم من الاموال

---

١) كان احد امراء الملك الناصر محمّد بن قلاوون تولّى المناصب الجليلة في دمشق وصرخد وطرابلس ثم لحق بالتتر مع سنقر ومات في همذان سنة ٧١٦ هـ

٢) لم نحصل على شيء من اخباره

٣) نظنُّ انهُ بريد تقيّ الدين احمد بن تيميّة الشهير وُلد بحرّان سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨ (١٢٦٣ – ١٣٢٨ م)

٤) هو الامير الطواشي جاه الدين قراقوش الاسديّ كان احد امراء الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين. وتولّى الاتابكيّة في ايّام ابنهِ الملك المنصور ولهُ اخبار كثيرة ونوادر وفكاهات

٥) هو الامير أسندمر الكرجيّ ولاّهُ الملك النّاصر محمّد بن قلاوون نيابة طرابلس سنة ٧٠٤ (١٣٠٥ م) فبنى لها حصنًا في موضع حصن سنجيل وتولّى نيابة حماة سنة ٧١٠ (١٣١١م). لم نقف على سنة وفاتهِ

٦) لم نجد لهُ ذكرًا في غير هذا التاريخ

٧) ذكر ابو الفداء هذه الواقعة في تاريخ سنة ٧٠٥ قال: وفي هذه السنة سار جمال الدين اقوش الأقرم بعسكر دمشق وغيره من عساكر الشام الى جبال الظنّينين وكانوا عصاةً مارقين من الدين فاحاطت العساكر الاسلامية بتلك الجبال المنيعة وترجّلوا عن خيولهم وصعدوا في تلك الجبال من كل الجهات وقتلوا واسروا جميع من بها من النُّصَيْريّة والظنّينين وغيرهم من الملوثين وطهرت تلك الجبال منهم وهي جبال شاهقة بين دمشق وطرابلس وأمنت الطريق بعد ذلك. . (اه). وقال ابن الوردي في تاريخهِ: وكان الذي افتى بذلك ابن تيميّة وتوجّه مع العسكر

٨) الجامكيّة لفظة اعجميّة يُراد بها الراتب وجزاء العمل

الديوانية. فاقاموا على ذلك سنين. وأقطع بعضهم املاكاً من حلقة طرابلس. واختفى بعضهم في البلاد واضمحلّ امرهم وخمل ذكرهم

وعاد نائب الشام الى دمشق بالعساكر في رابع شهر صفر من (٧٦٤) السنة المذكورة. وجعل الناظر في بلاد بعلبك والجبال الكسروانيّة بهاء الدين قراقوش فقهر ما كان تأخّر بجبال كسروان وقتل من اعيانهم جماعةً. ثمّ أعطوا أماناً لمن استقرّ في غير كسروان. ثم أقطعوا علاء الدين بن معبد البعلبكيّ وعزّ الدين خطّاب وسيفَ الدين بكر الحسامي وابنَ صُبح (١ اراضيَ في كسروان ثم ابطلوها عنهم واقطعوها التركمان فأذركوا موانئ البحر ودروب البرّ من ظاهر بيروت الى عمل طرابلس واستمرّوا الى وقتنا هذا وشُهروا بتركمان كسروان وعُرفوا به

ومن الحوادث انّهُ في العُشر الآخر من جمادى الاوّل جاز على بيروت تعميرةٌ (٢ للفرنج ولم يتعرّضوا لها وتوجهوا الى صيداء واخذوها وقتلوا من اهلها جماعةً واسروا جماعةً ونهبوا منها شيئاً كثيرًا. وكذلك المسلمون فانهم قتلوا من الفرنج جماعة وبعثوا برؤوسهم الى دمشق فعلّقوها على القلعة وكانت بضعاً وثلثين راساً. وحضر الى صيداء الامير شهاب الدين بن صُبح نائب صفد وسبق العسكر الشاميّ ولحق التعميرة على جزيرة صيداء بعد فوات الامر فاشترى الاسرى جميعهم كلّ نفر بخمسمائة درهم واخذ من ديوان الاسرى ثلاثين الف درهم

وفي يوم الجمعة الثالث عشر من محرّم سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٥ م) أُخذت الاسكندرية (٣ وكان الامير الكبير يَلبُغا العمريّ (٤ هو المتكلم عن السلطان لحداثة سنّهِ فرسم للامير

---

١) لم نجد لكل هؤلاء ذكرًا في غير هذا التاريخ. وابن صبح يدعوهُ المؤلف شهاب الدين ويقول انهُ كان نائبًا على صفد

٢) التعميرة هي العمارة من السفن والاسطول

٣) اخذها الفرنج وخربوها فخرجت العساكر المصرية لمقاتلتهم ففرّوا وتركوها

٤) هو الامير يَلبُغا الخاصكيّ كان مملوكًا للملك الناصر حسن بن محمّد بن قلاوون تولى النيابة في ايّام هذا السلطان وقتلهُ بعد ستّ سنين لمكرٍ واقام من بعده ابن اخيهِ السلطان الملك المنصور صلاح الدين محمّد سنة ٧٦٢ (١٣٦١ م) ثم خلعهُ بعد سنتين واقام بعدهُ الملك الاشرف زين الدين ابا المعالي شعبان سنة ٧٦٤ (١٣٦٣ م) فبقي تحت حجر يَلبغا الى ان استبدّ وقتل يَلبُغا سنة ٧٦٨ (١٣٦٧ م)

بيدمُر(١ الخوارزميّ (١٤) بالتوجُّه الى بيروت ليعمّر من غابتها مراكب كثيرة حمّالات وشواني(٢ للدخول الى قبرس. فحضر الى بيروت واحضر صنّاعًا كثيرين من سائر الممالك فكانوا جمًّا غفيرًا وقيل انهُ لم يعهد قط عمارةٌ مثلها عظمًا وسرعةً وكثرةَ صنّاع وقوّةَ عزم. وعمّر بيدمُر بظاهر بيروت مسطبةً وعُرفت بهِ الى الآن. وكانت المراكب تُعمَل بها على بُعد من البحر. وحضر عسكر الشام متجرّدًا فانزلوهُ فيما بين البحر والمراكب حذرًا من مراكب صاحب قبرس لئلّا يحضر المدوّ حين غفلة فيحرقوا ما يُعمل من المراكب. وكان نائب الشام في ذلك الوقت أقتمُر عبد الغني(٣. ولما توفي يابغا العمري في ليلة الاحد العاشر من ربيع الآخر سنة ثمان وستين وسبعمائة (١٣٦٧ م) أبطلت العمارة المذكورة ولم ينزل من المراكب الى البحر سوى حمّالتين كبيرتين الواحدة باسم سُنقر والثانية باسم قراجا (٤ وهما اميران من امراء ذلك الوقت. وكان الامير بيدمر قد استعجل القومَ على عمارتهما ليجهزهما فيُحضرا صواري وقرايا ومقاذيف لباقي الشواني التي يعمّرونها. ثمّ بقيتا بعد ذلك في ساحة بيروت حتى تلفتا. وكذلك تلفت بقية الشواني التي لم تنزل الى البحر تحت المسطبة المذكورة. وكان قد صُرف عليها مال كثير فذهب سدًى لم يُستفَد منها سوى الحديد بعد ما اخذت الناس منهُ شيئًا كثيرًا (٤)

ومن الحوادث انّهُ في العُشر الاوسط من جمادى الآخرة سنة اربع وثمانين وسبعمائة (١٣٨٢م) حضرت تعميرةُ الجنويّة الى صيدا فاخذتها وجاءت الى بيروت وكانوا سمعوا في دمشق بخبر حضورها الى صيدا. فقال ملك الامراء بيدمر: صيداء ما بقينا نلحقها لكنّا نروح نلحق بيروت. فوافق حضور العساكر الشاميّة الى بيروت حضورَ التعميرة فلم يتعرّض اصحابها للنزول الى البرّ وتوجهت التعميرة الى جهة قبرس والماغوصة (٥

ثمّ رجع العسكر الى دمشق وتأخر منهُ شرذمةٌ وجماعة من الامراء والمقدّم عليهم

---

١) هو الامير سيف الدين بيدُمر البدريّ الخوارزميّ تولّى نيابة طرابلس وحلب سنة ٧٦٧ (١٣٦٦م) ثم صار نائب الشام في ايّام الدولة التركمانيّة البحرية توفي نحو سنة ٧٩٠ (١٣٨٨ م)

٢) الشواني جمع شُونة وهي السفينة الكبيرة المجهّزة للحرب

٣) لم نقف على ذكرهِ في التواريخ التي بين ايدينا

٤) قد تسمّى كثيرٌ من الامراء باسم سنقر فلا يظهر ايًّا منهم اراد المؤلف. اما قراجا فهو زين الدين قراجا بن دلندار التركماني من الامراء البحريّة. لم نقف على سنة وفاتهِ

٥) الماغوصة من موانئ قبرس الكبيرة يدعوها الفرنج Famagouste

جمال الدين الهداني (١ وكان مقدّمَ الترك وكان عندهم عُشران(٢ البلاد والبقاع. ثم انّ التعميرة المذكورة آنفًا غابت اياماً قلائل وعاد الجنويُّون الى بيروت بعد ان تركوا في الماغوصة بعض مراكب صغار ومراكب نواقد كسبوها من صيداء وفي طريقهم مع ما كانوا غنموهُ من صيداء. فحضر الى بيروت اثنا عشر غُرابًا كبيرًا ودخلوا الميناء وكان فيها قرقورتان للبنادقة فاخذوهما وشحنوهما بالرجال وقدّموهما حتى تمكّن الرُّماة منهم بالجروخ(٣ والحجارة من صواريها على برج بيروت الصغير البعلبكيّ. ولم يكن في ذلك الوقت بُني البرج الكبير وكان مكانهُ خرائب قديمة. فرمى الفرنج المسلمين بالجروخ والمدافع فتنحّى المسلمون عن قبالة الفرنج واستتروا بالحيطان. فتقدّمت شواني العدوّ الى البرّ ما بين البرج الصغير والخرائب (٤ ١) التي كانت مكان البرج الكبير ونصبوا صفائلهم من الشواني الى البرّ. ونزل منهم شرذمة كبيرة وعليهم مقدّم من كبارهم وبيده سَنجَق وصعدوا في الجونة الى جهة الخرائب لينصبوا السنجق على علوّ اشارةً منهم انّهم ملكوا البلد. وشرعوا ينزلون من الشواني شرذمةً بعد أُخرى فهجمت فرقةٌ من المسلمين مع الوالد(٤ على الذين معهم السنجق فقهروهم ورموا السنجق. فلمّا نظر الفرنج وقوع السنجق وقف عزمهم وقويت قلوب المسلمين فحمل منهم ذوو النخوات فانهزم من كان نزل من الفرنج وازدحموا على الصفائل فانقلب بهم بعضها فغرق منهم جماعة وقُتل جماعة وانكسروا شرّ كسرة. واستشهد في ذلك اليوم من المسلمين نفرٌ وجُرح جماعة. وكانوا قد كشفوا التعميرة عشيّة يوم وصولها فاشعلوا النار ليلًا اشارةً لوصول الافرنج الى بيروت فوصلت النار بالتدريج في تلك الليلة الى دمشق فحضر بَيدَمُر نائب الشام الى بيروت عشيّة يوم الواقعة وتبعتهُ عساكر الشام فكان وصولهم بعد فوات الامر ولم يلحقوا القتال ولم يروا غير الشواني في البحر على بُعد وهي راجعة الى بلادهم

(ستأتي البقية)

١) لم نجد لهُ ذكرًا في غير هذا التاريخ

٢) نظنّ انهُ يريد بالعشران المتطوعين من اهل البلد

٣) هذه لفظة دخيلة لم نتحقّق صحّتها ووردت في الاصل على ثلاث صور مختلفة جُروخ وخُروج وحُروخ ويظهر من القرائن انها من ادوات الرمي ولعلّ الصواب « جُروج » تعريب (feu grégeois) وهي اسهم نارية تلتهب في الماء

٤) يريد المؤلفُ والدهُ وسيأتي ذكرهُ